الوقت وقت الهم والحزن

سؤال: إننا في عالمنا المعاصر دائمًا ما نتعرَّضُ ونواجِهُ حوادث تكوي القلوب، ومع ذلك فلا نرى أنفسنا نتأثَّر بها كما ينبغي، فما هي أسبابُ عجزِنا عن مثل هذا التأثُّرِ؟ وكيف ينبغي لنا أن نتصرَّف حتى نكون عبادًا مؤمنين يَقِظِينَ؟

الجواب: ثمة دوائر مختلفة يرتبط بها الإنسان بدءًا من أقربها منه وصولًا إلى أبعدها عنه؛ بحيث يُشكِّل الفردُ نقطة المركز في تلك الدوائر، وبتعبير آخر: فمن الطبيعةِ والفطرةِ أنَّ نَفسَ الإنسان هي أوَّلُ ما ينشَغِلُ به، وما ذُكِرَ في القرآن الكريم من التعبير عن بدءِ الإنسانِ بنفسه في طلبِ المغفرةِ: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ (سورة إبْرَاهِيمَ: ٤١/١٤)، و﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ (سورة نُوحٍ: ٢٨/٧١) يُشِيرُ في أحدِ معانيهِ إلى هذا الموقفِ الإنسانيِّ الطبيعيِّ الفطريِّ.

ومع هذا كلِّه فإنه يستحيل للمؤمن الحقيقي أن لا تؤثِّر فيه الحوادث والوقائع التي تقع حولَه، بل الحقيقة أنَّ كلَّ من نالَ نصيبَهُ من الإنسانية -بما في ذلك المؤمن- يشعرُ بالقَلَقِ والانزعاجِ من الأزمات والآلام التي يعيشها الآخرون، فيتألَّمُ مثلًا مِنْ تعرُّض

الأبرياء للظُّلم والعنف، ومن تَقاتُلِ الناس وتناحرِهم فيما بينهم؛ وذلك لأن جميعَ الناس بالنظر إلى الأصل هم أغصانُ شجرةٍ واحدةٍ أو أوراقُها أو أزهارُها أو ثمارُها، يخاطبنا القرآن الكريم قائلًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، ولذلك فإن كلَّ إنسان لم يفقدْ ضميرَه يهتَمُّ بآلامِ وهمومِ أخيه الإنسان باعتبارهما أبناء أبٍ واحدٍ هو آدم عليه السلام، حتى إن نفسه تتلوّى ألمًا وقلبُهُ ينزفُ دمًا بقدرِ عمقِ حسّ وشعورِ الشفقة عنده، أما المؤمن الحقيقي ذو مشاعر الرحمة والشفقة الواسعة فإنه يحسّ من أعماقه بالقلقِ والوجعِ متأثّرًا بما يعيشه الناسُ أجمعون من مظالم وأزمات ومضايقات؛ وفي مقدِّمتهم بنو دينه ووَطَنه وأمّتِه الذين يتَّجهون معه إلى نفسِ القبلة، ويشاركونه ذاتَ القيم، ويعيشون معه على أرضٍ واحدة؛ فيشعرُ بأن النارَ أينما تسقط وتشتعل بسبب المظالم والأزمات إنما تسقطُ في داخله هو فتحرقه وتأكله.

"القلق كناقوسٍ يدقُّ في منتصفِ الليل"

وبينما يتناحَرُ المسلمون يتدخَّلُ الأغيارُ بينهم لاعبين دورَ الحَكَم والفيصَلِ فَيُسَيطِرون على مصادِرِ ثرواتهم، وكما أن هؤلاء الأغيار أثاروا العداءَ بين مختلف العناصرِ في دولةٍ عالميةٍ ضخمةٍ؛ فمزَّقوها شرَّ ممزَّقٍ وانقضُّوا على ثرواتها الطبيعية؛ فإنّهم اليوم أيضًا يلعبون نفس الألاعيب تحدوهم عينُ الرغبات والآمال. أجل، إن من أشعَلوا نيران الاختلافِ والفُرقةِ بين الطوائفِ المسلمةِ في وقتٍ ما يواصلون اليوم أيضًا تنفيذَ نفس الشرور والخبائث بمكرٍ أكثر من ذي قبل.

علاوة على أن مناعةَ المسلمين الذين يتناوشون مع بعضهم البعض ضَعُفت ضعفًا شديدًا فيما يتعلَّقُ بحماية القِيَمِ والمعايير

الإسلامية؛ وذلك نتيجةً لنخر الدُّودِ في جسدِ الأمة، ومن ثَمَّ فإن طرحَ الناس المتنازعين فكرةً متوازنة ومحاكمةً عقليّة سليمةً أمرٌ في غايةِ الصعوبةِ بل يمكن القولُ باستحالته؛ لأن الكتلَ والأفراد المتصارعة فيما بينها تبتعد عن المنطقية وتنزلق في هوّة العاطفيّة، بل إن بعضًا منها يتحرَّك وفقًا لغرائزه وشهواته كالبهائم كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، وهم لا يفكِّرون ولو للحظةٍ واحدة: "لماذا كلُّ هذه النزاعات والصراعات؟ وما الذي تُعودُ به على العالم الإسلامي؟ وكيف نسمح لأحدٍ أن يُسوِّد نفسَه علينا متقمِّصًا دورَ الحَكَمِ بحجة أننا نتصارع فيما بيننا؟"، فإن مَنْ لم يشعُرْ بالحزن والأسى إزاءَ كلِّ هذه الحوادث ولم يستطع تحليلَها ورؤيةَ ما وراءها من خلفيّات وما لها من أبعادٍ؛ فإنه فَقَدَ بعضَ المشاعرِ الإنسانيّة.

"إن لم تبكِ فاستحيِ من الضَّحِكِ على الأقلّ!"

من يستطيعُ الحفاظَ حقًّا على صحوةِ ضميره يتأثَّرُ بما يراه في عوالم أخرى حتى غير عالم الإنسان كعالم الحيوان وعالم النبات بل وحتى عالم الجماد، واحتواءُ كلِّ شيء في تلك العوالم بَرْهَنَةً على رب العالمين ﷻ، واهتمامُ كلِّ ذي وجدانٍ بكلِّ ما في الكون باعتباره خليفة الله في الأرض، وتألُّمه بألم الجميع؛ كلُّ ذلك يُمثِّلُ ضرورةً إنسانيّة.

ولقد تأثرتُ تأثُّرًا بالغًا أمام مجموعةٍ من المشاهد شاهدتُها قبل سنوات في أفلامٍ وثائقيّة، من بينها على سبيل المثال أنَّ بضعة أسود أحاطت بثور من فصيلة "البَيسون"؛ فقفز أحدها على ظهره، وأمسك

الآخـرُ بقدمـهِ، بينما قَبَـضَ الثالثُ على رقبته وأكلُوه، وهذا المشـهد لا يُفـارِقُ عينـيَّ أبـدًا، ومـع أنه كان لهـذا الحيوان المسـكين قرنان إلا أنّـه لـم يكـن لديه ما يسـتطيعُ فعلَه في مواجهة مخالب الأسـودِ القويّة وأسنانها القاطعة، وحين أرقدُ في فراشي وألتفُّ بِلِحافي أنصب في خيالي أحيانًا الفخاخ والشِّباكَ لتلكَ الأُسُودِ التي مزَّقَتْ ذلك الثورَ فيما شاهدته من مناظر قبل حوالي عشرين سنة في الأفلام الوثائقية، وأجهز سـهمي، وأرميها به قائلًا: "لماذا مزقتم حيوانًا مسـكينًا كهذا؟ هذا ما تستحقونه".

فضـلًا عن أنَّ عالم الحيوان فيه سلسـلةٌ غذائيـة؛ فالحيوان الذي خلقه الله تعالى آكلًا للّحوم يواصل حياته بأكلِ غيره من الحيوانات، وكمـا أنَّ الحيوانات آكلـةَ النباتِ تتَّجِهُ إلى تناوُلِ الأعشـابِ بمجرَّدِ أن تضعَهـا أمهاتُهـا؛ فـإن الحيوانات آكلـةَ اللحومِ تتَّجِـهُ إلى البحث عن لحمٍ لها؛ لأن فطرةَ كلٍّ منهما تقتضي ذلك، كما أننا أيضًا نَسْـتَلُّ السـكِّين حينًـا فنذبحُ باسـم الله مـا نريـدُ أكلَ لحمه مـن الحيوانات المحلَّلَةِ، ولكنه وبالرغم من تقبُّلِنا هذا الوضـع الطبيعيّ عقليًّا إلا أننا نتأَثَّرُ حِسـيًّا ونتألم لتمزيـقِ بضعة حيوانات مفترِسَـةٍ أحدَ الحيوانات البريئة، ونشـعرُ بالضيق لذلك، ونتأذى منه، وأظنُّ أن كلَّ من يُصْغِي إلى صوتِ ضميره سَيَشْعُرُ بنفسِ المشاعِرِ في هذا الموضوعِ.

أجـل، يسـتحيلُ بالنسـبةِ للإنسـانِ الـذي يتـأذَّى من هـذا النوعِ مـن المشـاهِدِ -حتى وإن كانـت متعلِّقة بالحيـوان- ألَّا ينزعجَ حين يشـاهد أناسًـا يُقتَلُون وألَّا يتلوى ألمًا وحزنًا لهذا، ومِنْ ثَمَّ فإن عدمَ التأثُّـرِ والانفعـالِ تجـاهَ الحرائـق الموجـودة سـواء فـي بلادنا نحن

أو في غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى؛ إنما يدل على تجرُّدِ الإنسان من الإنسانيّة، أما من لم يفقد إنسانيَّتَهُ فإنه سيتأثَّرُ يقينًا أمام هذه السلبيّات الحاليّة.

ويقول الشاعر "محمد عاكف" وهو يتحدث عما يتعرض له المسلمون:

ما يُنْتَهَكُ اليومَ هو عِرْضُنا، ومَنْ يُذَبَّحُ هم أولادُنا؛ فانتَبِهِ يا ذا الغرورِ
إن لم تبكِ أيُّها الصفيقُ فاستحيِ على الأقلِّ من الضحكِ والسرورِ

كما أنَّ سيدنا رسول الله ﷺ قال في أحدِ أحاديثه الشريفة: "**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**"[١]، أي إن كان لأيِّ إنسانٍ نصيبٌ من الإيمان فعليه -على الأقلّ- أن يشعر بألم لما يتعرّض له المسلمون من مزعِجات ومنغِّصات، فمن لا يؤلمه هذا لا يفكِّر في تطويرِ مجموعةٍ من الحلول البديلةِ من شأنها أن تقضي على تلك المشكلات المشارِ إليها.

غير أنه ينبغي لكلِّ فردٍ في هذا الصَّدَدِ أن يَنْظُرَ إلى نَفْسه أوَّلًا، وأن يتجنَّبَ إساءةَ الظنِّ بالآخرين، ومَنْ يدري.. فربما يكونُ ظهورُ مَن حولنا وكأنّهم متبلِّدو الحِسّ غير متأثِّرين بالأمرِ نابعًا من كونهم أناسًا صبورين وجَلِدين للغاية، كما أنهم ربما يشعرون من أعماقِهم بما نشعرُ نحن به من أَلَمٍ ومرارةٍ، وربما تنزِفُ قلوبُهم حزنًا منهم على ما يتعرَّضُ له المسلمون من مشكلات وأزماتٍ، غير أنهم لقوَّةِ أنظمتِهم المناعيّة والمقاوِمَةِ لا يتأوَّهون من ألَمِ البلاء، ولا يَئِنُّون حتى لا يُعلِموا الأغيار شيئًا عن حالهم.

---

(١) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١/١٥١، ٧/٢٧٠؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤/٣٥٦.

نعرةُ الحربِ من شأنِها أن تقضي على الإنسانيّة

هناك جانبٌ مهمٌّ من المسألةِ فيما يتعلَّقُ بالشعور بالهمّ والحزن أمام تلك الابتلاءات والمصائب التي يعيشُها الناس، ألا وهو: أنه كما لا يصحّ عدمُ الشُّعُورِ بالأمرِ وعدمُ الاهتمامِ به؛ فلا تصحّ أيضًا إجراءاتٌ كالصراخ والصياح والضجيجِ والتدميرِ والحَرْقِ أو اللجوءِ إلى العنف؛ لأن ردَّ فعلٍ كهذا يُطرَحُ كَحَلٍّ للمسألةِ يخالف الإسلام والإنسانيّة، وبالتالي فإنه يجبُ ألا يُسمح بتاتًا بمثل هذه النوعية من التصرفات؛ بل ينبغي السعي إلى الحيلولة دون أنواع الوحشية عن طريق إعلاء القيم الإنسانية وإرسائها.

ومن أجل هذا فإنَّه إن كان لا بدَّ من ردِّ فعلٍ على المظالِمِ والتعدِّيات المرتكَبَةِ فلا بدَّ من التأكيدِ في كلِّ فرصةٍ على أنَّ دينَنَا بريءٌ تمامًا من أحداثِ الإرهابِ والعنفِ التي تؤدِّي إلى قتلِ الأبرياء دون أن تُفَرِّقَ بين صغيرٍ أو كبير ولا رضيعٍ أو طفلٍ ولا رَجُلٍ أو امرأةٍ ولا شابٍّ أو شيخٍ عجوز، ولا بدّ من أن يُلام صراحةً ويُندَّدَ بمن يقومون بمثل هذه الأعمال، وأن يُحالَ دون انتشار فكرة استخدام العنف والقوّة الغاشمة، وينبغي السعيُ بقدر الإمكان إلى تصحيح مسارِ من يعيشون انحرافًا فكريًّا في هذا الشأن، وإنقاذُهم من طريق الضلالة، وبينما نفعل هذا من جانب؛ يجب من جانب آخر على عقلاء السياسيين وعلماء الاجتماع والفلاسفة والتربويين أن يجتمعوا ويسعوا إلى إحلالِ لغةِ السلام والحوار محلَّ لغةِ العُنْفِ والحربِ، كما يجبُ بواسطة العقل المشترك تكوينُ مناخٍ سلميٍّ ولغةٍ سلميّة في مواجهة نعرات ودعوات الحرب التي ستشعلُها

بعـضُ الدول مـن أجلِ مصالحهـا وأطماعها الشـخصية، ولا بدَّ من تطوير المشاريـع وإعداد الخططِ البديلة لمواجهةِ كلِّ أنواع الإثارات والمحاولات السـاعيةِ لإشـعالِ فتيل الحرب العالمية الثالثة، التي لو اندلَعَـت فمـن المحتمَـلِ أن تُحـرِقَ بِلَهِيبِها العالم بأسـره من أقصاهُ إلـى أقصاهُ، ويجب أيضًا التنفيذ المباشِـرُ لما يمكن تحقيقُهُ من تلك المشاريـع والخُطَطِ، وإلا فإن الأسلحةَ الحديثةَ الفتَّاكةَ وحربًا عالميةً سَتُسْتَخْدَمُ فيها تلك الأسلحةُ ستقضي على الإنسانية جمعاء.

obeikandl.com